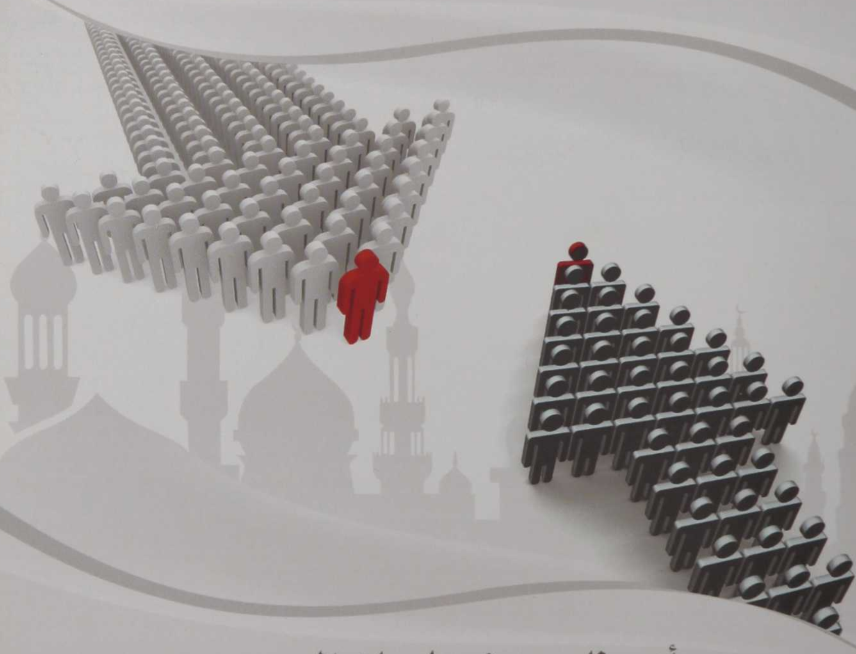
الاختلاف

في العمل الإسلامي



أ.د. ناصر بن سليمان العمر

المشرف العام على موقع المسلم

www.almoslim.net

الطبعة الأولى

...ارة للنشر والتوزيع

ح دار الحضارة للنشر والتوزيع، ١٤٢٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمر، سليمان ناصر

الاختلاف في العمل الإسلامي./ سليمان بن ناصر العمر.- الرياض ١٤٢٩هـ

٠٠ص ؛ ٠٠ سم

ردمك: ١-٤٧٤-٥١-٩٩٦٠-٩٧٨

١- الدعوة الإسلامية أ. العنوان

ديوي ٢١٣ ١٤٢٩/٦٠٤١

رقم الإيداع: ١٤٢٩/٦٠٤١

ردمك: ١-٤٧٤-٥١-٩٩٦٠-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هـاتف: ٢٤٩٦٥٥٥ - ٢٧٨٧٣٣٣ فاكس: ٢٤٨٣٠٠٤

المستودع تلفون: ٢٤١٦١٣٩ فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد فهذا مبحث أعده المكتب العلمي بإشراف فضيلة شيخنا الأستاذ الدكتور/ ناصر بن سليمان العمر، المشرف العام على موقع المسلم، وقد كان لفكره ونظره وما استفدناه منه عظيم الأثر في إخراج هذا المبحث في صورته الراهنة، فجزاه الله خير ما جزى مرشداً مسدداً.

ومبدأ هذا البحث استجابة منه – حفظه الله – للإسهام في مؤتمر بعنوان: «العمل الإسلامي بين الاتفاق والافتراق»، نظمه قسم الثقافة الإسلامية بجامعة الخرطوم في السودان، وقد استغرق ثلاثة أيام بدءاً من ٢٣ وانتهاءً بـ٢٥ جمادى الأولى من عام ١٤٢٥هـ الموافق ١٠/ ١٢/ ٢٠٠٤م، وقد كان المؤتمر يهدف إلى تقرير جملة قضايا منها:

- بيان وجوب الاعتصام بالكتاب والسنة، وأثره في حياة المسلمين.
- وضع الأسس النظرية لتأصيل وحدة العمل الإسلامي.
- الكشف عن أسباب الافتراق في الأمة، وبيان سبل تلافيه.
- تقديم المقترحات العملية لبرامج مشتركة بين العاملين للإسلام.

ومن هذه نسخة منقحة مزيدة من أصل البحث الذي قدم، نسأل الله أن يبارك فيها ويكتب بها نفعاً، ويلم بها للإسلام شعثاً.

هذا ولا غنى لنا عن استدركات الناصحين، وتوجيهات المشايخ الحادبين على أمر الدين، فجزى الله خيراً من ناصح وسدد، وقوم وأرشد.

رئيس المكتب العلمي

إبراهيم بن عبدالله الأزرق

المقدمات

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد، فلا يخفى على كل مسلم بصير ما تعيشه أمة الإسلام من شتات وفرقة، واختلافات أوجبت عداوةً وشقاقاً، إذ تجاذبت أهلها الأهواء، وتشعبت بهم البدع، وتفرقت بهم السبل، فلا عجب أن تراهم بين خصومة مذهبية، وحزبية فكرية، وتبعية غربية أو شرقية.. والنتيجة يخبر عنها قول المولى عز وجل: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾[(١)].

وإذا كان المسلمون اليوم يلتمسون الخروج من هذا المأزق فلا سبيل إلاّ بالاعتصام بحبل الله المتين وصراطه المستقيم، مجتمعين غير متفرقين، متعاضدين غير مختلفين.

ويكون ذلك بتوحيد الهدف والغاية مع حسن النية وسلامة القصد قال ابن القيم رحمه الله: «ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لا بد منه، لتفاوت إرادتهم، وأفهامهم، وقوى إدراكهم، ولكن المذموم بغي بعضهم على بعض وعدوانه وإلا فإذا كان الاختلاف على وجه لا يؤدي إلى التباين والتحزب، وكل من المختلفين قصده طاعة الله ورسوله لم يضر ذلك الاختلاف

---

(١) سورة الروم.

فإنه أمر لا بد منه في النشأة الإنسانية، ولكن إذا كان الأصل واحداً والغاية المطلوبة واحدة والطريق المسلوكة واحدة لم يكد يقع اختلاف وإن وقع كان اختلافاً لا يضر كما تقدم من اختلاف الصحابة، فإن الأصل الذي بنوا عليه واحد وهو كتاب الله وسنة رسوله والقصد واحد وهو طاعة الله ورسوله والطريق واحد وهو النظر في أدلة القرآن والسنة وتقديمها على كل قول ورأي وقياس وذوق وسياسة»(١).

والاختلاف موضوع الحديث هو: «نقيض الاتفاق. جاء في اللسان ما مفاده: اختلف الأمران لم يتفقا. وكل ما لم يتساوى فقد اختلف. والخلاف: المضادة، وخالفه إلى الشيء عصاه إليه، أو قصده بعد أن نهاه عنه. ويستعمل الاختلاف عند الفقهاء بمعناه اللغوي وكذلك الخلاف»(٢) وبعض الفقهاء فرّق بين الاختلاف والخلاف باصطلاحات خاصة، أما «(الافتراق) (والتفرق) (والفرقة) فبمعنى أن يكون كل مجموعة من الناس وحدهم. ففي القاموس: الفريق القطيع من الغنم، والفريقة قطعة من الغنم تتفرق عنها فتذهب تحت الليل عن جماعتها. فهذه الألفاظ أخص من الاختلاف»(٣).

فليس كل اختلاف افتراق، وكل افتراق اختلاف، وليس شرطاً أن يكونا مذمومين على ما سيأتي بيانه وإن كان الغلب ذم أهل الفرقة والاختلاف.

---

(١) الصواعق المرسلة: ٢/ ٥١٩.

(٢) الموسوعة الفقهية: ٢/ ٢٩٢.

(٣) الموسوعة الفقهية: ٢/ ٢٩١.

أقسام الاختلاف:

الاختلاف ينقسم إلى أقسام عدَّة بعتبارات مختلفة يتباين الحكم عليها فمنها:

انقسام الاختلاف باعتبار حقيقة المسائل المختلف فيها فمنه:

١- **اختلاف صوري**، ومن قبيله اختلاف التفاوت كالذي يكون في الكلام فيكون بعضه بليغاً وبعضه دون ذلك، ومنه كذلك اختلاف التلاؤم الذي يكون في الكلام، ومن قبيله كذلك اختلاف التنوع وهو «أن يذكر كل من المختلفين من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود في عمومه وخصوصه. مثال ذلك تفسير قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾[1] قال بعضهم: السابق الذي يصلي أول الوقت، والمقتصد في أثنائه، والظالم لنفسه الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار. وقيل: السابق المحسن بالصدقة، والمقتصد بالبيع، والظالم بأكل الربا. واختلاف التنوع في الأحكام الشرعية قد يكون في الوجوب تارة وفي الاستحباب أخرى: فالأول مثل: أن يجب على قوم الجهاد، وعلى قوم الصدقة، وعلى قوم تعليم العلم. وهذا يقع في فروض الأعيان

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

كما مُثِّل. وفي فروض الكفايات، ولها تنوع يخصها، وهو أنها تتعين على من لم يقم بها غيره: فقد تتعين في وقت، أو مكان، وعلى شخص أو طائفة كما يقع مثل ذلك في الولايات والجهات والفتيا والقضاء. قال ابن تيمية: وكذلك كل تنوع في الواجبات يقع مثله في المستحبات. وقد نظر الشاطبي في المسألة، وحصر الخلاف غير الحقيقي في عشرة أنواع:

منها: ما تقدم من الاختلاف في العبارة. ومنها: ألا يتوارد الخلاف على محل واحد. ومنها: اختلاف أقوال الإمام الواحد، بناء على تغير الاجتهاد، والرجوع عما أفتى به أولاً. ومنها: أن يقع الاختلاف في العمل لا في الحكم، بأن يكون كل من العملين جائزاً، كاختلاف القراء في وجوه القراءات، فإنهم لم يقرؤوا بما يقرؤوا به على إنكار غيره، بل على إجازته والإقرار بصحته، فهذا ليس في الحقيقة باختلاف، فإن المرويات على الصحة لا خلاف فيها، إذ الكل متواتر. وهذه الأنواع السابقة تقع في تفسير القرآن، وفي اختلافهم في شرح السنة، وكذلك في فتاوى الأئمة وكلامهم في مسائل العلم. وهي أنواع – وإن سميت خلافاً – إلا أنها ترجع إلى الوفاق» [1].

---

(١) الموسوعة الفقهية: ٢/ ٢٩٢-٢٩٣.

• تنبيه الاختلاف الصوري: منه المذموم، وهو ما وقع في باطل.

٢- **اختلاف حقيقي**، ومنه اختلاف التضاد؛ وهو قسمان سائغ، وغير سائغ، ولعله تأتي الإشارة إليهما [(١)].

ومن أقسام الاختلاف انقسام الاختلاف باعتبار ما يوجبه فمنه:

١- اختلاف يقتضي عداوة وشقاقاً، ويقع في الاختلاف الحقيقي، كالاختلاف في الأصول المُجْمع عليها.

٢- اختلاف لا يقتضي عداوة وشقاقاً، ويقع في عامة الاختلاف الصوري وقد يقع في الاختلاف الحقيقي كالاختلاف في كثير من الفروع باجتهاد سائغ.

ومن أقسام الاختلاف انقسام الاختلاف باعتبار أثره فمنه:

١- اختلاف مؤثّر في الأحكام والأعمال المترتبة.

٢- اختلاف نظري ذهني لا ينبني عليه شيء في أرض الواقع.

فالأول اختلاف مؤثر في العمل، ومنه السائغ الذي لا يضر، ومنه غير السائغ، والآخر من قبيل اختلاف السفسطائية هل البيضة قبل الدجاجة أم الدجاجة قبل البيضة! قال شيخ الإسلام: «وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فإن الله نصب على الحق فيه دليلاً فمثال ما لا يفيد، ولا دليل على الصحيح منه اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف، وفي

---

(١) ينظر كذلك فقه الائتلاف لمحمود الخزندار، ص٣٤.

البعض الذي ضرب به موسى من البقرة، وفي مقدار سفينة نوح، وما كان خشبها، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر، ونحو ذلك. فهذه الأمور طريق العلم بها النقل، فما كان من هذا منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ كاسم صاحب موسى أنه الخضر فهذا معلوم، وما لم يكن كذلك بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب، كالمنقول عن كعب، ووهب، ومحمد بن اسحق، وغيرهم ممن يأخذ عن أهل الكتاب فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة» (١) وقال: «وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً..» (٢).

من أهم أقسام الاختلاف التي تحتاج إلى تحرير انقسام الاختلاف باعتبار مدح أصحابه وذمهم:

وقد حرر ذلك ابن القيم – رحمه الله – في الصواعق حيث قال: الاختلاف في كتاب الله نوعان:

أحدهما: أن يكون المختلفون كلُّهم مذمومين، وهم الذين اختلفوا بالتأويل، وهم الذين نهانا الله سبحانه عن التشبه بهم في قوله: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ ﴾ (٣)، وهم الذين تسودُّ وجوههم يوم القيامة، وهم الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) الفتاوى: ١٣/ ٣٤٥.

(٢) الفتاوى: ١٣/ ٣٦٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٥.

﴿ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [١]، فجعل المختلفين كلّهم في شقاق بعيد، وهذا النوع هو الذي وصف الله أهله بالبغي، وهو الذي يوجب الفرقة والاختلاف وفساد ذات البين ويوقع التحزب والتباين.

والنوع الثاني: اختلاف ينقسم أهله إلى محمود ومذموم، فمن أصاب الحق فهو محمود، ومن أخطأه مع اجتهاده في الوصول إليه فاسم الذم موضوع عنه، وهو محمود في اجتهاده معفو عن خطئه، وإن أخطأه مع تفريطه وعدوانه فهو مذموم.

ومن هذا النوع المنقسم قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ﴾ [٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [٣].

والاختلاف المذموم كثيراً ما يكون مع كل فرقة من أهله بعض الحق فلا يقر له خصمه به، بل يجحده إياه بغياً ومنافسة، فيحمله ذلك على تسليط التأويل الباطل على النصوص التي مع خصمه، وهذا شأن جميع المختلفين بخلاف أهل الحق فإنهم يعلمون الحق من كل من جاء به، فيأخذون حق جميع الطوائف ويردون باطلهم، فهؤلاء الذين قال الله فيهم:﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١٠.

ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1]، فأخبر سبحانه أنه هدى عباده لما اختلف فيه المختلفون.

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه: «**اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»[2].

فمن هداه الله سبحانه إلى الأخذ بالحق حيث كان ومع من كان ولو كان مع من يبغضه ويعاديه ورد الباطل مع من كان ولو كان مع من يحبه ويواليه فهو ممن هُدِيَ لما اختُلف فيه من الحق، فهذا أعلم الناس وأهداهم سبيلاً وأقومهم قيلاً وأهل هذا المسلك إذا اختلفوا فاختلافهم اختلاف رحمة وهدى يقر بعضهم بعضاً عليه ويواليه ويناصره، وهو داخل في باب التعاون والتناظر الذي لا يستغني عنه الناس في أمور دينهم ودنياهم، بالتناظر والتشاور وإعمالهم الرأي وإجالتهم الفكر في الأسباب الموصلة إلى ذلك الصواب، فيأتي كل منهم بما قدحه زناد فكره وأدركته قوة بصيرته، فإذا قوبل بين الآراء المختلفة والأقاويل المتباينة وعرضت على الحاكم الذي لا يجور وهو كتاب الله وسنة رسوله، وتجرد الناظر عن التعصب والحمية، واستفرغ وسعه، وقصد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(٢) صحيح الإمام مسلم: ١/ ٥٣٤ (٧٧٠).

طاعة الله ورسوله فقل أن يخفى عليه الصواب من تلك الأقوال، وما هو أقرب إليه، والخطأ، وما هو أقرب إليه، فإن الأقوال المختلفة لا تخرج عن الصواب، وما هو أقرب إليه، والخطأ، وما هو أقرب إليه، ومراتب القرب والبعد متفاوتة، وهذا النوع من الاختلاف لا يوجب معاداة ولا افتراقاً في الكلمة ولا تبديداً للشمل، فإن الصحابة رضي الله عنهم اختلفوا في مسائل كثيرة من مسائل الفروع كالجد مع الإخوة، وعتق أم الولد بموت سيدها، ووقوع الطلاق الثلاث بكلمة واحدة، وفي الخلية والبرية والبتة، وفي بعض مسائل الربا، وفي بعض نواقص الوضوء وموجبات الغسل، وبعض مسائل الفرائض وغيرها، فلم ينصب بعضهم لبعض عداوة، ولا قطع بينه وبينه عصمة، بل كانوا كل منهم يجتهد في نصر قوله بأقصى ما يقدر عليه، ثم يرجعون بعد المناظرة إلى الألفة والمحبة والمصافاة والموالاة، من غير أن يضمر بعضهم لبعض ضغناً، ولا ينطوي له على معتبة ولا ذم، بل يدل المستفتي عليه مع مخالفته له، ويشهد له بأنه خير منه وأعلم منه، فهذا الاختلاف أصحابه بين الأجرين والأجر، وكل منهم مطيع لله بحسب نيته واجتهاده وتحريه الحق»[(١)].

وهذا النوع من الاختلاف بهذا المسلك الذي ذكره يراه بعض أهل العلم كالشاطبي – رحمه الله – يرجع في الحقيقة إلى وفاق، «فإن الاختلاف في بعض المسائل الفقهية راجع إما إلى دورانها بين طرفين واضحين يتعارضان في أنظار

(١) الصواعق المرسلة لابن القيم: ٢/ ٢١٤-٢١٨.

المجتهدين، وإما إلى خفاء بعض الأدلة، أو إلى عدم الاطلاع على الدليل. وهذا الثاني ليس في الحقيقة خلافاً، إذ لو فرضنا اطلاع المجتهد على ما خفي عليه لرجع عن قوله، فلذا ينقض لأجله قضاء القاضي. أما الأول فإن تردده بين الطرفين تحر لقصد الشارع المبهم بينهما من كل واحد من المجتهدين، واتباع للدليل المرشد إلى تعرف قصده. وقد توافقوا في هذين القصدين توافقاً لو ظهر معه لكل واحد منهما خلاف ما رآه لرجع إليه، ولوافق صاحبه. وسواء قلنا بالتخطئة أو بالتصويب، إذ لا يصح للمجتهد أن يعمل على قول غيره وإن كان مصيباً أيضاً. فالإصابة على قول المصَوِّبة إضافية. فرجع القولان إلى قول واحد بهذا الاعتبار. فهم في الحقيقة متفقون، لا مختلفون. ومن هنا يظهر وجه التحاب والتآلف بين المختلفين في مسائل الاجتهاد ؛ لأنهم مجتمعون على طلب قصد الشارع، فلم يصيروا شيعاً، ولا تفرقوا فرقاً»[1].

فلو نظرت هذا النوع من الاختلاف الذي حمده الشاطبي وابن القيم وغيرهم من أهل العلم وجدت الحمد منصبّاً على اتفاق المختلفين في مراعاتهم قصد الشارع، وطلبهم لمراده، واتباعهم الدليل الذي ظهر منهم ومن هذه الجهة جاء مدح مثل هؤلاء المختلفين.

---

(١) الموسوعة الفقهية: ٢/ ٢٩٥.

ويتبع للتقسيم الذي سبق نوع آخر من الاختلاف:

وهو وفاق في الحقيقة، وهو اختلاف في الاختيار، والأولى بعد الاتفاق على جواز الجميع كالاختلاف في أنواع الأذان والإقامة وصفات التشهد والاستفتاح وأنواع النسك الذي يحرم به قاصد الحج والعمرة وأنواع صلاة الخوف والأفضل من القنوت أو تركه ومن الجهر بالبسملة أو إخفائها ونحو ذلك فهذا وإن كان صورته صورة اختلاف فهو اتفاق في الحقيقة [١].

والأصل ذم الخلاف وتجنبه، مادام اختلافاً حقيقياً قد يسبب فرقة ويوقع في تعارض، وهذا ما دلت عليه نصوص الوحيين ففي السنة جاء النهي عن «الذرائع التي توجب الاختلاف والتفرق والعداوة والبغضاء كخِطبة الرجل على خِطبة أخيه، وسومه على سومه، وبيعه على بيعه، وسؤال المرأة طلاق ضرتها، وقال إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما سداً لذريعة الفتنة والفرقة، ونهى عن قتال الأمراء، والخروج على الأئمة وإن ظلموا وجاروا ما أقاموا الصلاة سدا لذريعة الفساد العظيم والشر الكبير بقتالهم كما هو الواقع فإنه حصل بسبب قتالهم والخروج عليهم من الشرور أضعاف ما هم عليه والأمة في تلك الشرور إلى الآن» [٢].

---

(١) الصواعق: ٢/ ٢١٩.

(٢) إغاثة اللهفان، ص٣٦٩.

وأدلة القرآن كثيرة ومنها:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وقال سبحانه: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[2].

وقال عز وجل: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ ﴾[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٠٣-١٠٥.

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٣) سورة الشورى، الآيتان: ١٣، ١٤.

وقال سبحانه: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ (١).

بل عمل الخير إذا قصد به التميز والتفريق بين المؤمنين كان لصحابه نصيب من الذم، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ (٢).

فالاختلاف مادام اختلاف تعارض ينقض بعضه بعضاً شر لا يسلم منه إلاّ من كان معه الصواب، فإذا توزع الصواب بين المختلفين كان معهم من الخير والبعد عن الذم بمقدار ما معهم من الحق، ومع ذلك قد يعذر فيه المجتهد المخطئ بل يثاب لإرادته الخير وقصده، ولهذا يسلم من آثار الاختلاف المذموم المجتهدون الذين استفرغوا وسعهم في معرفة الحق والعمل به.

الاختلاف بين المشيئة الكونية والشرعية:

الاختلاف سنة كونية، وقدر واقع لا محالة بمشيئة الله الكونية، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (٣).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٦.

(٢) سورة التوبة، الآيتان: ١٠٧، ١٠٨.

(٣) سورة هود، الآيتان: ١١٧، ١١٨.

والقدر الكوني إن كان شراً فيجب أن يسعى الإنسان للخروج منه وعدم الوقوع فيه، كالكفر فهو قدر كوني حكم الله بوجوده كوناً، ومع ذلك واجب على كل إنسان أن يجتنبه وكذلك المعاصي، وكل ذلك مقدَّر شاء الله وقوعه كوناً بناء على علمه باختيار الإنسان، فالله عز وجل وهب خلقه مشيئة واختياراً خاضعة لمشيئة الله مع علمه باختيارهم، وكتابته له، وتقدير كونه منهم.

فالخلاف قد يكون قدراً كونياً فيه شر ولا يخلو من خير – فالله لا يخلق شراً محضاً – فلا يستسلم له العبد بل يقاومه بالقدر، فإن لم يزله خفف من آثاره وخرج بأقل أضراره.

مسألة هل الاختلاف رحمة وخير أم عذاب وشر؟

رُويت في ذلك أحاديث لا تثبت مثل: حديث أصحابي كالنجوم فبأيهم اقتديتم اهتديتم [١]، وحديث اختلاف أمتي رحمة [٢].

ومع عدم ثبوت نص تباينت أقوال السلف في المسألة، «فأُثر عن عمر ابن عبد العزيز قوله: ما أحب أن أصحاب رسول الله لم يختلفوا ؛ لأنه لو كان قولاً

---

(١) نقل الإمام ابن تيمية تضعيفه عن الأئمة في منهاج السنة: ٤/ ٢٣٨، وقال الحافظ العراقي في مختصر المنهاج: إسناده ضعيف من أجل حمزة فقد اتهم بالكذب، ص٥٥، وقد حكم الألباني بوضعه في غير موضع انظر الضعيفة: ٥٨.

(٢) ذكر الألباني أنه موضوع لا سند له انظر ضعيف الجامع: ٢٣٠، وبداية السول، ص١٩، وقد ذكر الحافظ العراقي أثر اختلاف أصحابي لأمتي رحمة وحكم بأنه مرسل ضعيف، مختصر المنهاج، ص٦٠.

واحداً كان الناس في ضيق، وإنهم أئمة يقتدى بهم، فلو أخذ أحد بقول رجل منهم كان في سعة.

وعن يحيى بن سعيد أنه قال: اختلاف أهل العلم توسعة، وما برح المفتون يختلفون، فيحلل هذا ويحرم هذا، فلا يعيب هذا على هذا، ولا هذا على هذا.

وقال ابن عابدين: الاختلاف بين المجتهدين في الفروع – لا مطلق الاختلاف – من آثار الرحمة فإن اختلافهم توسعة للناس. قال: فمهما كان الاختلاف أكثر كانت الرحمة أوفر.

وهذه القاعدة ليست متفقاً عليها، فقد روى ابن وهب عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس أنه قال: ليس في اختلاف أصحاب ﷺ سَعة، وإنما الحق في واحد.

وقال المزني صاحب الشافعي: ذم الله الاختلاف وأمر بالرجوع عنده إلى الكتاب والسنة.

وتوسَّط ابن تيمية بين الاتجاهين، فرأى أن الاختلاف قد يكون رحمة، وقد يكون عذاباً.

قال: النزاع في الأحكام قد يكون رحمة إذا لم يفض إلى شر عظيم من خفاء الحكم. والحق في نفس الأمر واحد، وقد يكون خفاؤه على المكلف – لما في ظهوره من الشدة عليه – من رحمة الله به، فيكون من باب ﴿لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ

﴿أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾[1]. وهكذا ما يوجد في الأسواق من الطعام والثياب قد يكون في نفس الأمر مغصوباً، فإذا لم يعلم الإنسان بذلك كان كله حلالا لا شيء عليه فيه بحال، بخلاف ما إذا علم. فخفاء العلم بما يوجب الشدة قد يكون رحمة، كما أن خفاء العلم بما يوجب الرخصة قد يكون عقوبة، كما أن رفع الشك قد يكون رحمة وقد يكون عقوبة. والرخصة رحمة. وقد يكون مكروه النفس أنفع كما في الجهاد»[2].

عمل أهل العلم على الخروج من الخلاف:

لكون الاختلاف مذموم من حيث الجملة، فقد راعى كثير من أهل العلم الخروج من الخلاف في تعليل كثير من الأحكام، ومن ذلك قول بعض فقهاء الحنابلة بكراهة الطهارة بالماء المتغير بمجاورة أو بملح مائي مع أنه طهور، ولكنهم يعللون بمخالفة غيرهم لهم فيما اختاروا، فاستحبوا الخروج من الخلاف بكراهة استعمال ذلك الماء[3].

ومنه كذلك قول بعض فقهاء الأحناف بالندب للإشهاد على الرجعة خروجاً من الخلاف[4].

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠١.

(٢) الموسوعة الفقهية: ٢/ ٢٩٥-٢٩٦، بتصرف يسير.

(٣) ينظر على سبيل المثال تعليل الحنابلة لكراهة بعض ما لم يقم عندهم دليل على منعه، الممتع شرح زاد المستقنع لابن عثيمين، كتاب الطهارة ١/ ٢٥.

(٤) البحر الرائق لابن نجيم: ٤/ ٥٥.

ومنه قول بعض فقهاء المالكية بطواف القدوم بنية الركنية خروجاً من الخلاف [١].

ومنه قول الشافعية باستحباب عدم القصر لسفر أقل من مسيرة ثلاثة أيام للخروج من الخلاف [٢].

ويكاد يطبق أرباب المذاهب الأربعة على التعليل بالخروج من الخلاف في اختياراتهم الفقهية.

ولكنهم وضعوا لذلك ضوابط من أهمها ما قرره العز بن عبدالسلام حيث يقول: «والضابط في هذا أن مأخذ المخالف إن كان في غاية الضعف والبعد عن الصواب فلا نظر إليه، ولا التفات عليه، إذ كان ما اعتمد عليه لا يصح نصه دليلاً شرعاً» [٣] ثم قال: «وإن تقاربت الأدلة في سائر الخلاف بحيث لا يبعد قول المخالف كل البعد فهذا مما يستحب الخروج من الخلاف فيه، حذراً من كون الصواب مع الخصم والشرع يحتاط لفعل الواجبات والمندوبات، كما يحتاط لترك المحرمات والمكروهات».

فالخلاف إذا كان له حظٌّ من النَّظر، والأدلَّة تحتمله، فالمحققون يكرهون ويستحبون لأجل الخروج منه؛ لا لأنَّ فيه خلافاً بل لأنه من باب «دَعْ ما

---

(١) منح الجليل شرح مختصر خليل، لعليش: ٢/ ٢٢٢.

(٢) المجموع: ٤/ ٢١٢.

(٣) قواعد الأحكام للعز بن عبدالسلام: ١/ ٢٥٣.

يَريبُك إلى ما لا يَريبُك»، وكذلك قد يستحب أن يراعى الخلاف بل قد يتعين حتى مع الخلاف الضعيف إن خُشِي ترتب مفسدة أعظم على الخلاف إذا هو لم يراعي.

أما إذا كان الخلاف لا حَظَّ له من النَّظر فلا يُمكن أن نعلّلَ به المسائل؛ ونأخذ منه حكماً.

فليس كلُّ خلافٍ جاء مُعتَبراً ... إلا خلافٌ له حظٌّ من النَّظر

ولأنَّ الأحكام لا تثبت إلاّ بدليل، ومراعاة الخلاف غير المعتبر لا تصلح دليلاً شرعياً، فيقال: هذا مكروه، أو غير مكروه بناء عليه، إلاّ إن خشي ترتب مفسدة أعظم جراء الفرقة فتقدر حينها الأمور بقدرها، وذلك لأمر خارج عن مجرد الخلاف غير المعتبر، مع العمل على إعادة الحق إلى نصابه وإقرار المصيب على صوابه.

حكم الاختلاف في العمل الإسلامي؟

حكم الاختلاف على أنواع:

النوع الأول: أصول الدين التي تثبت بالأدلة القاطعة، كوجود الله تعالى ووحدانيته، وملائكته وكتبه ورسالة محمد ﷺ والبعث بعد الموت ونحو ذلك. فهذه أمور لا مجال فيها للاختلاف، من أصاب الحق فيها فهو مصيب، ومن أخطأه فهو كافر.

النوع الثاني: بعض مسائل أصول الدين، مثل مسألة رؤية الله في الآخرة، وخلق القرآن، وخروج الموحدين من النار، وما يشابه ذلك، فقيل يكفر

المخالف، ومن القائلين بذلك الشافعي. فمن أصحابه من حمله على ظاهره. ومنهم من حمله على كفران النعم..

النوع الثالث: [الأمور [١]] المعلومة من الدين بالضرورة كفرضية الصلوات الخمس، وحرمة الزنا، فهذا ليس موضعاً للخلاف. ومن خالف فيه فقد كفر.

النوع الرابع: الفروع الاجتهادية التي قد تخفى أدلتها. فهذه الخلاف فيها واقع في الأمة. ويعذر المخالف فيها؛ لخفاء الأدلة أو تعارضها .. فأما إن كان في المسألة دليل صحيح صريح لم يطلع عليه المجتهد فخالفه، فإنه معذور بعد بذل الجهد، ويعذر أتباعه في ترك رأيه أخذا بالدليل الصحيح الذي تبين أنه لم يطلع عليه. فهذا النوع لا يصح اعتماده خلافاً في المسائل الشرعية، لأنه اجتهاد لم يصادف محلا، وإنما يعد في مسائل الخلاف الأقوال الصادرة عن أدلة معتبرة في الشريعة [٢].

أما واقع العمل الإسلامي فإذا كان الاختلاف من قبيل التنوع، كأن يتخصص كل فريق أو جماعة في عمل، فهو اختلاف صوري، وهو مطلوب، أما إذا كان الاختلاف اختلاف تحزب وتعصب، يمنع التعاون والتعاضد وسماع النصيحة من الآخر فهو اختلاف مذموم. وكثير منه يقع في مسائل اجتهادية أو فرعية المخالف فيها معذور، ومثل هذا الخلاف لا ينبغي أن يخرج بالناس إلى ساحة احتراب وتناحر، بل لأصحابه في صحابة رسول الله أسوة حسنة، فمع

---

(١) في أصل الموسوعة الفروع، وهذا محل نظر وإن جرى على ألسنة المتكلمين، ومن تبعهم من الأصولين وقد بين ذلك المحققون من أهل العلم.

(٢) الموسوعة الفقهية: ٢/ ٢٩٣-٢٩٤، بتصرف يسير واختصار.

مخالفة بعضهم لبعض بقي إقرارهم بفضل ذوي الفضل، وتوقيرهم، مع عمل كل برأيه وسعيه لنشره.

والذي ينبغي هو أن يكون اختلاف المسلمين في العمل الإسلامي من هذا القبيل، إن لم يكن من قبيل اختلاف التنوع ولاسيما مع كثير من الشعارات المرفوعة، فالهدف الأسمى واحد، ومجالات العمل متنوعة، والساحة تسع الجميع بل تحتاجهم.

ولكن الواقع من الناحية العملية وجود التناحر والتحزبات والعصبيات التي تشبه عصبيات عصور التعصب المذهبي، ولئن سأل بعض المقلدة المتعصبة قديماً عن حكم صلاة الحنفي خلف المالكي أو العكس، فإن بعض جهلة الحزبيين اليوم يسألون عن حكم الصلاة خلف بعض إخوتهم المسلمين!

وكما أن أهل العلم ذموا التعصب للمذهب وأنكروه، فإن علينا أن نذم التعصب للجماعات أو الأفراد وننكره، وكما أن الذم لا يتوجه للمذاهب المعتبرة وأئمتها عند أهل التحقيق، فإن الذم قد لا يتوجه إلى الجماعات ورؤوسها طالما كانت ملتزمة بالسنة في الجملة، وإن خرج بعض رجالاتها عن ركب السنة باجتهادات شخصية لم تؤثر على دعوة الجماعة كحال بعض رجالات المذاهب الفقهية المتبوعة.

وقد يتوجه الذم إلى الجماعة جملة وتفصيلاً إن كان التحزب والتقوقع أساساً من أسسها، أو كان من أسسها القول بمذاهب شاذة أو اجتهادات غير سائغة عند أهل العلم.

***

ثانياً: أسباب الافتراق.

الأسباب كثيرة ويمكن أن نقسمها إلى خمسة عوامل رئيسية تندرج تحتها أنواع عدة، وبعض هذه الخمسة يتعلق ببعض ولكن أفردته لأهميته، وهذه العوامل هي:

أولاً: تفاوت الناس في الطبائع والميول وتفاضلهم في العقول:

قال ابن القيم رحمه الله: «ووقوع الاختلاف بين الناس أمر ضروري لا بد منه، لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقوى إدراكهم..» [(١)].

ولعل أثر تباين الطبائع والمدارك جلي في كثير من أشكال الاختلاف الواقع، فانظر إلى اختلاف أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في شأن أسرى بدر، تجد كل واحد منهما نزع إلى ما يقارب طبعه، فأبوبكر الرقيق الشفيق مال إلى المن أو الفداء، وعمر القوي الشديد جنح إلى الإثخان، وهو الذي جاء به القرآن.

فالجِبلَّة الخِلْقة، والظروف الاجتماعية، والبيئية الخاصة بالشخص، أو العامة في المجتمع، كلها تؤثر على نمط التفكير فيجنح كل طرف إلى ما لا يجنح إليه الآخر.

---

(١) الصواعق: ٢/ ٥١٩.

وفي بعض الأحيان يتطلب الحكم موازنة بين أمور تحتاج إلى قوة العقل وحضوره، والناس متفاوتون في ذلك، ولا يعني هذا أن الأكمل عقلاً هو الأرجح اختياراً أو هو الذي ينحو نحو الصواب دائماً، وذلك لما يَرِدُ على الأفراد من أحوال وأوقات يتعكَّر فيها المزاج مع ازدحام الأشغال أو يذهل فيها المرء لمؤثرات أثرت عليه دون الآخر سواء كانت هذه المؤثرات منبعثة من البيئة الخارجية أو عوامل نفسية خاصة بالشخص، فيؤدي ذلك لأن يخطئ الصواب وإن كان هو الأرجح عقلاً والأحضر ذهناً من حيث الجملة. ولعل من ذلك قصة عمر على أن في ثبوتها مقالاً [1] مع المرأة في الميراث يوم قال «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

وربما تفاضل الناس في إدراك الصواب واختلفوا لتبيان عقولهم ونفوسهم ضعفاً وقوة في جوانب مختلفة، فبعض الناس قد يحسنون النظر في مسائل لاتساع معارفهم وتمرين عقولهم عليها، ولا يحسنون الخوض في مسائل أخرى، وكم من إنسان تكلم في غير ما يحسن فأضحك الناس، وشواهد هذا كثيرة.

---

(١) ممن ضعَّفها الألباني في الإرواء ٦/ ٣٤٨، وألف فيها نزار عرعور رسالة بعنوان: القول المعتبر، وبيَّن ضعفها، وكذلك أفرد لها مقالاً يوسف العتيق في كتابه قصص لا تثبت، ص٢٧، على أن بعضهم صححها ومنهم مصطفى العدوي في كتابه جامع أحكام النساء: ٣/ ٣٠١. ولعل الصواب أن القصة لا تتقوى بالشواهد التي ذكرها فهي إما معضلة أو في أسانيدها ضعفاء لا يحتمل جبر مروياتهم، وبخاصة الآثار التي ورد فيها قول عمر – رضي الله عنه: أخطأ عمر وأصابت امرأة.

ولهذا ذكر الأستاذ محمود الزحيلي أن أسباب الخلاف تنحصر في سبعة وذكر أولها:

الاختلاف في الأمور الجبلّية: إذ أن الأئمة والعلماء يتفاوتون في ملكاتهم وطبائعم وعقولهم، وهذا أمر طبعي ينتج عنه في بعض الأحايين اختلاف الأحكام المستنبطة من الأدلة الشرعية.

ولعله قُدِّم هذا لما له من أثر على البقية.

ومن هذا القبيل الاختلاف في الحكم بسبب النسيان:

ومن قبيله ما يروى من أن علياً ذكَّر الزبير يوم الجمل شيئاً عهده إليهما رسول الله فذكره فانصرف عن القتال قلت فيكون الناسي معذوراً بفتواه.

ومنه كذلك عندما همَّ عمر رضي الله عنه أن يأخذ عيينة ابن حصن فذكّره الحُر بن قيس بقول الله عز وجل: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [1] فأمسك.

ثانياً: من أسباب الاختلاف تفاوت الناس في العلم والمعرفة.

فأصل حدوث الاختلاف المذموم والتفرق في الأمة هو الجهل بالدين، ولهذا قال الشاطبي رحمه الله: «فاعلموا أن الاختلاف في بعض القواعد الكلية لا يقع في العاديات الجارية بين المتبحرين في علم الشريعة الخائضين في لجتها

(١) سورة الأعراف.

العظمى، العالمين بمواردها ومصادرها، والدليل على ذلك اتفاق العصر الأول وعامة العصر الثاني على ذلك»[١].

ولهذا رُوي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خلا يوماً فجعل يحدِّث نفسه: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد، وقبلتها واحدة، وكتابها واحد؟ فأرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهما وسأله، فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين إنما نزل القرآن علينا فقرأناه وعلمنا فيما أنزل، وأنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولا يدرون فيما أنزل فيكون لكل قوم فيه رأي، فإذا كان ذلك اختلفوا[٢].

قال الإمام الشاطبي معلّقاً: وما قاله ابن عباس رضي الله عنهما هو الحق، فإنه إذا عرف الرجل فيما نزلت الآية أو السورة عرف مخرجها وتأويلها وما قُصد بها، فلم يتعد ذلك فيها، وإذا جهل فيما أُنزلت احتمل النظر فيها أوجهاً، فذهب كل إنسان مذهباً لا يذهب إليه الآخر[٣].

فإذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله، وتصدَّر للتدريس والفتيا كل من وجد من نفسه زيادة فهم وفضل ذكاء وذهن مع أنه لم يأخذ العلم عن أهل التخصص والصناعة، إذا كان ذلك كذلك وقع الافتراق والاختلاف.

---

(١) الاعتصام: ٢/ ١٧٢.

(٢) الاعتصام: ٢/ ١٨٣، باختصار يسير.

(٣) المرجع السابق.

وقد عدَّ أهل العلم أن من البلايا «أن يعتقد الإنسان في نفسه أو يُعتقد فيه أنه من أهل العلم والاجتهاد في الدين ولم يبلغ تلك الدرجة فيعمل على ذلك، ويعد رأيه رأياً وخلافه خلافاً.. فتراه آخذاً ببعض جزئيات الشريعة في هدم كلياتها، وعليه نبه الحديث الصحيح: (لا يقبض الله العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا)» [١].

وأمثال هؤلاء أبكوا قديماً ربيعة الرأي، قال الإمام مالك -رحمه الله: أخبرني رجل أنه دخل على ربيعة بن أبي عبدالرحمن فوجده يبكي، فقال له: ما يبكيك؟ وارتاع لبكائه، فقال له: أمصيبة دخلت عليك؟ فقال: لا، ولكن استفتي من لا علم له، وظهر في الإسلام أمر عظيم. وقال ربيعة: ولبعض من يفتي ههنا أحق بالسجن من السراق [٢].

وإذا كان هذا في عصور التابعين والأئمة المرضيين فماذا نقول في زمن الغربة بعد أن أصبح مجاهيل الإنترنت مشايخ يؤخذ عنهم العلم في كثير من الساحات، ويفتون في المدلهمات؟! والله المستعان.

---

(١) الاعتصام: ٢/ ١٧٢-١٧٣، باختصار يسير.

(٢) جامع بيان العلم وفضله، ص٥٧٨.

ثم من أهم أسباب الاختلاف بسبب تباين العلوم والمعارف الاختلاف في العلم بنصوص الوحيين أو دلالتهما وهو ثلاثة أنواع [١]:

أحدها عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله، أو لم يثبت عنده أن النبي ﷺ قاله.

الثاني عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول.

الثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ.

وهذه الثلاثة تتفرع عنها أسباب عدة، ولعل في النماذج السابقة شيء من البيان، ويمكن أن نجملها فيما يلي:

١- قد يكون النص لم يبلغ بعض المخالفين فعمل بظاهر آية أو حديث آخر، فمن لم يبلغه النص لم يكلف أن يكون عالماً به، بل يكتفي المخالف أحياناً بظاهر آية، أو بحديث، أو بموجب قياس، أو بموجب استصحاب [٢]، قال شيخ الإسلام: «وهذا السبب هو الغالب على أكثر ما يوجد من أقوال السلف مخالفاً لبعض الأحاديث، فإن الإحاطة بحديث رسول الله ﷺ «لم تكن لأحد من الأمة» [٣]، ومن أمثلة ذلك:

---

(١) ملخص من الصواعق المرسلة: ٢/ ٥٤٢-٦٣٢، وزيدت عليه صور من مصادر أشير إليها في موضعها.

(٢) انظر مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٣٣)، ينظر الإنكار في مسائل الخلاف، ص١٦، للدكتور عبدالله بن عبدالمحسن، الطريفي، الجريسي، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

(٣) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٢٣٣.

أولاً: حكم أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - في الجدة بأنها لا ترث مطلقاً، فعن قبيصة بن ذؤيب قال:«جاءت الجدة إلى أبي بكر تسأله ميراثها، قال: فقال لها: ما لك في كتاب الله شيء، وما لك في سنة رسول الله ﷺ شيء، فارجعي حتى أسأل الناس، فسأل الناس فقال المغيرة بن شعبة حضرت رسول الله ﷺ فأعطاها السدس، فقال أبو بكر: هل معك غيرك؟ فقام محمد بن مسلمة الأنصاري، فقال مثل ما قال المغيرة بن شعبة فأنفذه لها أبو بكر»[1].

ثانياً: خفاء سنة الاستئذان على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فعن أبي سعيد الخدري قال: «كنت في مجلس من مجالس الأنصار، إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور، فقال: استأذنت على عمر ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثاً فلم يؤذن لي فرجعت، وقال رسول الله ﷺ: «**إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجع**»، فقال: والله لتقيمن عليه ببينة، أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ؟ فقال أبي بن كعب: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم، فكنت أصغر القوم فقمت معه فأخبرت عمر أن النبي

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الفرائض: ٣/ ١٢١، رقم: ٢٨٩٤، وسنن ابن ماجة أبواب الفرائض: ٢/ ١٦٣، سنن الترمذي: ٤/ ٤٢٠، رقم: ٢١٠١. وقال الحافظ في تلخيص الحبير: ٣/ ٨٢، إسناده صحيح لثقة رجاله، إلا أن صورته مرسل.

ﷺ قال ذلك [١]، فهذه سنة قد خفيت على عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مع سعة علمه وفقهه في دين الله تعالى وليس في هذا مذمة لعمر - رضي الله عنه - فإن الله تعالى يقول: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [٢]، فمهما بلغ الإنسان من العلم فلا شك أنه لن ينتهي، ولهذا قالوا: «العلم إن أعطيته كلَّك أعطاك بعضَه، وإن أعطيته بعضك فاتك كله».

والأمثلة كثيرة منها خفاء الحكم على كثير من الصحابة في نزول الطاعون ببلد [٣]، ومنها حكم عمر بمنع الحائض من النفرة قبل أن تطوف طواف الإفاضة ثم رجوعه لما بلغه الخبر [٤]، فهذه أمثلة على خفاء بعض نصوص الشريعة على من شهدوا الوحي وعاينوا التنزيل، فخفاء بعض الأصول على من بعدهم أولى وأحرى، ولا يجوز لمن أتى بعدهم «أن يدَّعى

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب التسليم واستئذان ثلاثاً، وانظر الفتح: ١١/ ٢٦، برقم: ٦٢٤٥، وصحيح مسلم كتاب الآداب، باب الاستئذان، انظر شرح النووي: ٧/ ٣٨١، برقم: ٢١٥٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٧٦.

(٣) ينظر صحيح البخاري، كتاب الطب، باب ما يذكر في الطاعون، انظر الفتح: ١٠/ ١٧٩، برقم: ٥٧٢٩، صحيح مسلم، كتاب السلام باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها، انظر شرح النووي: ٧/ ٤٦٠-٤٦٢، برقم: ٢٢١٩.

(٤) ينظر صحيح البخاري كتاب الحيض، باب المرأة تحيض بعد الإفاضة، انظر الفتح: ١/ ٤٢٨ برقم: ٣٣٠.

انحصار حديث رسول الله ﷺ في دواوين معينة، ثم لو فرض انحصار حديث رسول الله ﷺ فليس كل ما في الكتب يعلمه العالم، ولا يكاد ذلك يحصل لأحد، بل قد يكون عند الرجل الدواوين الكثيرة وهو لا يحيط بما فيها»[١].

ومن هذا القبيل أيضاً:

١- أن يكون النص قد بلغ المخالف، لكنه منسوخ، بنص آخر ولم يعلم المخالف بالناسخ[٢].

ومن أمثلة ذلك، اللبس الذي حصل أول الأمر في ربا النسيئة، ونكاح المتعة وغيرهما مما استقر الإجماع عليه بعد.

٢- أن يكون النص قد بلغه ولكنه لم يثبت عنده إما لأن محدثه مجهول أو سيئ الحفظ أو متهم، ولا يعلم أن له طرقاً أخرى، ولهذا علَّق كثير من الأئمة العمل بموجب الحديث على صحته فكثيراً ما يقول الإمام: قولي فيه كَيْتَ وكيت، وقد رُوي فيه حديث بخلافه فإنْ صح فهو قولي.

٣- اعتقاد ضعف النص باجتهاد خالفه فيه غيره، كتضعيفه لراوٍ وثقه غيره، ومن ذلك أن بعض الأئمة كان لا يرى قبول حديث أصله

---

(١) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٢٣٩.

(٢) انظر الخلاف بين العلماء أسبابه وموقفنا منه، ص٢٣. المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى: ١٤٠٥هـ.

غير حجازي (شامي أو بصري..) وبعضهم رأى هذا الرأي ثم رجع ومما أُثر في ذلك كلمة الشافعي لأحمد: يا أبا عبدالله إذا صحَّ الحديث فأعلمني حتى أذهب إليه شامياً كان أو عراقياً. ولعل من ذلك مخالفة الأحناف لغيرهم في القهقهة، فالإمام أبو حنيفة أخذ بحديث القهقهة في الصلاة، وجعل القهقهة من نواقض الوضوء، ومن مبطلات الصلاة [(١)]، مع أن الحديث الذي استدل به ضعيف عند الأئمة، لكن عذره في ذلك ظنه أن الحديث صالح للاحتجاج به، وهذا ليس فيه مذمة له - رحمه الله - بل هو في العلم والفضل من هو، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ومن ظن بأبي حنيفة أو غيره من أئمة المسلمين أنهم يتعمدون مخالفة الحديث الصحيح لقياس أو غيره فقد أخطأ عليهم، وتكلم إما بظن، وإما بهوى، فهذا أبو حنيفة يعمل بحديث التوضُّؤ بالنبيذ في السفر [(٢)] مخالفة

---

(١) انظر الهداية، شرح بداية المبتدي: ١/ ١٠٦. والمبسوط للسرخسي ١/ ٧٧ والتي بعدها.

(٢) الحديث رواه الدار قطني بسنده عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**إذا قهقه أعاد الوضوء وأعاد الصلاة**»، ثم قال الدار قطني: «فهذه أقاويل أربعة عن الحسن كلها باطلة؛ لأن الحسن إنما سمع هذا الحديث من حفص بن سليمان المنقري عن حفصة بنت سيرين عن أبي العالية الرياحي مرسلاً عن النبي ﷺ»اهـ. انظر سنن الدار قطني كتاب الطهارة - باب أحاديث القهقهة في الصلاة وعللها: ١/ ١٦٤-١٦٥، وانظر في تمام تخريجه نصب الراية للزيلعي مع الهداية: ١/ ١٠٦-١١٤.

للقياس، وبحديث القهقهة في الصلاة مع مخالفته للقياس [١]، لاعتقاده صحتهما، وإن كان أئمة الحديث لم يصححوهما » [٢].

٤- اشتراط بعضهم في قبول النص شروطاً يخالفه فيها غيره، كاشتراط بعضهم كون الراوي فقيهاً إذا روى ما يخالف القياس، واشتراط بعضهم ظهور الحديث وانتشاره إذا كان فيما تعم به البلوى، وربما وقع الاختلاف في بعض قواعد علوم الآلة ومنها المصطلح ومن ذلك توثيق ابن حبان لمن لم يعرف بجرح، في مقابل طريقة ابن حزم في الرمي بالجهالة، وكتشدد أبي حاتم في نقد الرجال، وتساهل الحاكم في توثيقهم، واشتراط بعضهم للصحة اللقيا واكتفاء آخرين بالمعاصرة، وغير ذلك.

٥- أن ينسى البعض حديثاً أو آية كما ذهل عمر رضي الله عنه عن قول الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [٣] لمّا مات نبينا محمد ﷺ.

٦- عدم معرفة دلالة لفظ النص: ومن الركائز الأساسية في هذا العلم باللغة العربية، قال الشاطبي رحمه الله: «الله عز وجل أنزل القرآن

---

(١) يشير إلى حديث عبدالله بن مسعود أن النبي ﷺ قال له – ليلة الجن – ما في إداوتك قال: نبيذ،، قال: تمرة طيبة وماء طهور، رواه الإمام أحمد في مسند ابن مسعود ١/ ٦٦٣، وأبو داود في سننه: ١/ ٢١، برقم: ٨٤، وانظر سنن ابن ماجة ١/ ١٣٥، وسنن الترمذي: ١/ ١٤٧، رقم ٨٨، قال الحافظ في الفتح: ١/ ٣٥٤: «وهذا الحديث أطبق علماء السلف على تضعيفه».

(٢) مجموع الفتاوى: ٢٠/ ٣٠٤-٣٠٥.

(٣) سورة الزمر.

عربياً لا عُجمة فيه، بمعنى أنه جار في ألفاظه وأساليبه على لغة لسان العرب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]. وكان المنزل عليه القرآن عربياً أفصح من نطق بالضاد، وهو محمد بن عبدالله ﷺ، وكان الذين بعث فيهم عرباً أيضاً، فجرى الخطاب به على معتادهم في لسانهم... وإذا كان كذلك فلا يفهم كتاب الله تعالى إلاّ من الطريق الذي نزل عليه وهو اعتبار ألفاظها ومعانيها وأساليبها»[2]، ولهذا قال الشافعي رحمه الله: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلاّ لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطاطاليس»[3]، وقال السيوطي معلّقاً بعد أن ذكره: «أشار الشافعي بذلك إلى ما حدث في زمن المأمون من القول بخلق القرآن ونفي الرؤية وغير ذلك من البدع، وأن سببها الجهل بالعربية والبلاغة الموضوعة فيها من المعاني والبيان والبديع»، ومما يؤكد هذا أن عمرو بن عبيد[4] جاء إلى أبي عمرو بن العلاء التميمي[5] يناظره في وجوب عذاب الفاسق، فقال يا أبا عمرو: هل يخلف الله وعده؟ فقال: لن

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٣.

(٢) الاعتصام: ٢/ ٢٩٣-٢٩٤ باختصار.

(٣) صون المنطق، ص١٥.

(٤) أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب البصري ٨٠/ ١٤٤، أصله من الموالي وولاؤه لبني تميم، وهو شيخ المعتزلة.

(٥) أبو عمرو بن العلاء التميمي المازني البصري ٧٠-١٥٧، شيخ قراءة العربية اشتهر بالفصاحة والصدق وسعة العلم.

يخلف الله وعده، فقال عمرو: فقد قال وذكر آية وعيد، فقال أبوعمر: من العجمة أتيت، الوعد غير الإيعاد ثم أنشد:

وإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلفُ إيعادي منجزُ موعوي [1]

ولهذا قال الحسن البصري رحمه الله: «إنما أهلكتهم العجمة يتأولونه على غير تأويله» [2]. ولو نظرت في كثير من أهل البدع التي فرقت المسلمين لوجدت أصولاً لاتنم عن أصالة في اللسان العربي، فغيلان الدمشقي أول من تكلم في القدر وقال بخلق القرآن كان مولى لآل عثمان بن عفان، والجعد بن درهم كان مولى لبني الحكم، وجهم بن صفوان كان مولى لبني راسب، وعمرو بن عبيد مولى لبني تميم، وواصل بن عطاء مولى لبني مخزوم أو لبني ضبة على خلاف في النسبة.

ولعل من أظهر عوامل الاختلاف بسبب عدم فهم دلالة النصوص عاملان:

- الأول إما لكون اللفظ غريباً، نحو لفظ المزابنة والمحاقلة والمنابذ، ومن هذا القبيل اختلافهم في تفسير لا طلاق ولا عتاق في إغلاق. ففسَّره كثير من الحجازيين بالإكراه، وفسَّره كثير من العراقيين بالغضب،

---

(١) سير أعلام النبلاء: ٦/ ٤٠٨-٤٠٩، وقد ذكرها غير واحد من أهل التراجم والأخبار.

(٢) الاعتصام: ٢/ ٢٩٩.

ومنهم من فسَّره بجمع الطلاق في كلمة واحدة باعتبار أنه مأخوذ من غلق باب الطلاق جملة.

• أو لكون اللفظ مشتركاً أو مجملاً أو متردداً بين حمله على معناه عند الإطلاق (الحقيقة) أو حمله على معناه عند التقييد (مجاز) كاختلافهم في القُرْء ومعناه.

٧- معرفة دلالة اللفظ وموضوعه، ولكن لا يتفطن لدخول هذا الفرد المعين تحت اللفظ إما لعدم تصوره لذلك الفرد أو لعدم حضوره بباله أو لاعتقاده أنه مختص بما يخرجه عن اللفظ العام.

٨- عدم اعتقاد وجود دلالة في لفظ النص على الحكم المتنازع عليه، وهذا له أربعة حالات:

• ألا يعرف مدلول اللفظ في عرف الشارع فيحمله على خلاف مدوله في العرف الشرعي.

• أن يكون له في عرف الشارع معنيين فيحمله على أحدهما ويحمله المخالف على الآخر.

• أن يفهم من العام خاصاً أو من الخاص عاماً، أو من المطلق مقيداً أو من المقيد مطلقاً.

• أن ينفي دلالة اللفظ مع أن اللفظ تارة يكون مصيباً في الدلالة وتارة يكون مخطئاً، فمن نفى دلالة قول الله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ

﴿يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [(١)] على حل أكل ذي المخلب والناب أصاب، ومن نفى دلالة العام على ما عدا محل التخصيص غلط ومن نفى دلالته على ماعدا محل السبب غلط.

٩- اعتقاد أن دلالة النص عارضها ما هو مساو لها فيجب التوقف، أو عارضها ما هو أقوى فيجب تقديمه، ولهذا أقسام متعددة [(٢)]. ومن أمثلة ذلك

أولا: لَمّا حدَّث ابن عباس عائشةَ بحديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنهم - أن النبي ﷺ قال: «**إن الميت إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه**» [(٣)]، أنكَرتْ ذلك وقالت: «إنكم لتحدثوني عن غير كاذبين ولا مكذبين، ولكن السَّمع يُخْطئ، يرحم الله عمر، لا والله ما قاله رسول الله ﷺ قط إن الميت يعذب ببكاء أحد، ولكنه قال: «إن الكافر يزيده الله ببكاء أهله عذاباً، وإن الله لهو ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [(٤)]، فظنت

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

(٢) للاستزادة في تفصيلها راجع الصواعق المحرقة لابن القيم: ٢/ ٥٧٧ - ٦٣١.

(٣) صحيح البخاري كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ «**يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان النوح من سنته**»، انظر فتح الباري ٣/ ١٥١، رقم: ١٢٨٦، صحيح مسلم كتاب الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه، انظر شرح النووي ٣/ ٤٨٣، رقم: ٩٢٧.

(٤) صحيح البخاري كتاب الجنائز، باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه إذا كان لنوح من سننه، انظر فتح الباري: ٣/ ١٥١-١٥٢، رقم: ١٢٨٨، صحيح مسلم كتاب

عائشة رضي الله عنها أن هذا النص يخالف ما ثبت عندها من كلامه صلى الله عليه وسلم بل يخالف مقتضى القرآن الكريم [١].

ثانيا: اختلاف العلماء في الجمع بين قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ﴾ [٢]، وبين قوله تعالى: ﴿ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ﴾ [٣]، فالآية الأولى تحرم على المسلمين نكاح المشركات، والآية الثانية تحلل نكاح الكتابيات، وقد اختلف العلماء في نكاح الكتابيات، فالجمهور على جوازه، استناداً لآية المائدة، وقال بعض العلماء لا يجوز نكاح الكتابيات استناداً لآية البقرة، وظناً منهم أن آية المائدة معارضة بآية أصرح منها وهي آية البقرة [٤].

ثالثاً: ومن أسباب الاختلاف اتباع الشهوات أو الشبهات.

فالأهواء والشهوات تدفع إلى ظلم الغير في سبيل تحصيل الشهوة فيقع الخلاف وينشأ الافتراق فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه؛ وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذي يوجه الآراء والأفكار. فإذا

الجنائز، باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه، انظر شرح النووي: ٤٨٦-٤٨٥-٣، رقم: ٩٢٨.

(١) فتح الباري ٣/ ١٥٢-١٥٦، بتصرف يسير واختصار.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢١.

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥.

(٤) انظر أسباب اختلاف الفقهاء، ص١٨.

استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم – مهما اختلفت وجهات النظر في المسألة المعروضة – فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها! وإنما هو وضع «الذات» في كفة، والحق في كفة ؛ وترجيح الذات على الحق ابتداء!.. ومن ثم جاء هذا التعليم بطاعة الله ورسوله عند المعركة.. إنه من عمليات «الضبط»التي لا بد منها في المعركة.. ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ۝ ﴾[١].

وأما الشبهات والتأولات الفاسدة، فتبعد الناس عن الحق إلى أقوال وآراء متباينة، ومن أظهر ذلك الافتراق الذي وقع في الأمة بانحراف ثنتين وسبعين فرقة عن الجادة.

كما أن اتِّباع الشهوات والشبهات سبب لعدد من الآفات الكفيلة بتمزيق الصف وتفريق الأمة، ولعل من أهمها ما يلي:

أولاً: البغي.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية وهو صاحب تجربة واسعة مع المخالفين، قال رحمه الله [٢] «وأنت إذا تأملت ما يقع من الاختلاف بين هذه الأمة

---

(١) سورة الأنفال، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٢) الفتاوى: ١٤/ ٤٨٢-٤٨٣.

علمائها وعبادها وأمرائها ورؤسائها وجدت أكثره من هذا الضرب الذي هو البغي بتأويل أو بغير تأويل، كما بغت الجهمية على المستنة في محنة الصفات و القرآن؛ محنة أحمد و غيره، وكما بغت الرافضة على المستنة مرات متعددة، وكما بغت الناصبة على علي وأهل بيته، وكما قد تبغى المشبهة على المنزهة، وكما قد يبغي بعض المستنة إما على بعضهم، وإما على نوع من المبتدعة بزيادة على ما أمر الله به، وهو الإسراف المذكور في قولهم: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا ﴾[1].

ثانياً: الغرور بالنفس.

فالغرور بالنفس يولد الإعجاب بالرأي، والكبر على الخلق، فيصر الإنسان على رأيه، ولو كان خطأ، ويستخف بأقوال الآخرين، ولو كانت صواباً، فالصواب ما قاله، والخطأ ما قاله غيره، ولو ارعوى قليلا واتهم نفسه، وعلم أنها أمارة بالسوء، لدفع كثيرا من الخلاف والشقاق، ولكان له أسوة بنبينا ﷺ الذي قال الله تعالى له: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾[2]، وإذا كانت صفة التواضع ولين

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

الجانب من أوائل صفات المؤمنين، فإنها في حق من انتصب للعلم والدعوة والفتوى والتعليم أوجب وأكثر ضرورة وإلحاحاً [١].

ثالثاً: سوء الظن بالآخرين:

فهو ينظر لجميع الناس بالمنظار الأسود، فأفهامهم سقيمة، ومقاصدهم سيئة، وأعمالهم خاطئة، ومواقفهم مريبة، كلما سمع من إنسان خيراً كذبه، أو أوَّله، وكلما ذُكر أحد بفضل طعنه وجرَّحه، اشتغل بالحكم على النيات والمقاصد، فضلاً عن الأعمال والظواهر، والمصادرة للآخر قبل معرفة رأيه، أو سماع حجته [٢]، ثم هو لا يتوقف عند هذا الحد، بل لسانه طليق في أعراض إخوانه، بسبهم، واتهامهم، وتجريحهم، وتتبع عثراتهم، فإن تورع عن الكلام في أعراض غيره من الفضلاء، سلك طريق الجرح بالإشارة، أو الحركة، بما يكون أخبث وأكثر إقذاعاً، مثل: تحريك الرأس، وتعويج الفم، وصرفه، والتفاته، وتحميض الوجه، وتجعيد الجبين، وتكليح الوجه، والتغير، والتضجر [٣]. «وأنت ترى هؤلاء الجُراَح القُصَّاب، كلما مر على ملأ من الدعاة اختار منهم (ذبيحاً) فرماه بقذيفة من هذه الألقاب المرة، تمرق من فمه مروق السهم من الرمَّية، ثم يرميه في الطريق، ويقول: أميطوا الأذى عن الطريق فإنه من شعب الإيمان!» [٤].

(١) أدب الخلاف للقرني، ص٢٧-٢٩، بتصرف.

(٢) أدب الخلاف، للقرني: ص٣٥.

(٣) انظر تصنيف الناس بين الظن واليقين للشيخ بكر أبو زيد، ص١١، بتصرف.

(٤) انظر تصنيف الناس بين الظن واليقين، ص٢٢، بتصرف يسير.

رابعاً: حب الظهور بالجدل والمماراة

ويكون دافع ذلك في الغالب هوى مطاعاً، وقد يكون قلة الفقه أوالفراغ وترك الاشتغال بما ينفع.

وقد روى الإمام أحمد [(١)] وغيره عن أبي أمامة قال: قال ﷺ: «**ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل**» ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [(٢)].

قال الإمام أبو يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة - رحمهما الله: «الخصومة في الدين بدعة، وما ينقض أهل الأهواء بعضهم على بعض بدعة محدثة. لوكانت فضلاً لسبق إليها أصحاب ﷺ وأتباعهم، فهم كانوا عليها أقوى ولها أبصر. وقال الله تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [(٣)]، ولم يأمره بالجدل، ولو شاء لأنزل حُججاً، وقال له: قل كذا وكذا» [(٤)].

وقال ابن قتيبة - رحمه الله - يصف الحال في أيام السلف عليه الرحمة والرضوان: «كان المتناظرون في الفقه يتناظرون في الجليل من الواقع، والمستعمل من الواضح، وفيما ينوب الناس فينفع الله به القائل والسامع، فقد

---

(١) المسند: ٢/ ٢٥٢ و ٢/ ٢٥٦، وحسنه الألباني في غير موضع انظر صحيح الجامع: ٥٦٣٣.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢٠.

(٤) الفتاوى: ١٦/ ٤٧٦.

صار أكثر التناظر فيما دق وخفي، وفيما لا يقع وفيما قد انقرض.. وصار الغرض فيه إخراج لطيفة، وغوصاً على غريبة، ورداً على متقدم.

وكان المتناظرون فيما مضى يتناظرون في معادلة الصبر بالشكر وفي تفضيل أحدهما على الآخر، وفي الوساوس والخطرات ومجاهدة النفس وقمع الهوى فقد صار المتناظرون يتناظرون في الاستطاعة والتولد والطفرة والجزء والعرض والجوهر، فهم دائبون يخبطون في العشوات، قد تشعبت بهم الطرق، قادهم الهوى بزمام الردى..»(١).

فلما وقع الناس في الجدل تفرقت بهم الأهواء، قال عمرو بن قيس(٢): قلت للحكم بن عتبة(٣): ما اضطر الناس إلى الأهواء؟ قال: الخصومات(٤).

وقد رُوي عن أبي قلابة – وكان قد أدرك غير واحد من أصحاب ﷺ: لا تجالسوا أصحاب الخصومات، فإني لا آمن أن يغمسوكم في ضلالتهم، أو يلبسوا عليكم بعض ما تعرفون(٥).

قال معن بن عيسى: «انصرف مالك بن أنس رضي الله عنه يوماً من المسجد وهو متكئ على يدي، فلحقه رجل يقال له أبوالحورية، كان يتهم بالإرجاء، فقال: ياعبدالله! إسمع مني شيئاً أكلمك به، وأحاجك وأخبرك برأيي.

---

(١) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية لابن قتيبه، ص١٠-١١.

(٢) هو عمرو بن قيس الملائي أحد الثقات العباد روى عن عطية العوفي وغيره توفي: ١٤٦هـ.

(٣) هو أبو محمد الحكم بن عتبة الكندي الكوفي ثقة ثبت فقيه توفي: ١١٣هـ.

(٤) السنة لعبدالله بن الإمام أحمد: ١/ ١٣٧.

(٥) سنن الدارمي: ١/ ١٢٠.

قال: فإن غلبتني؟

قال: إن غلبتك اتبعني.

قال: فإن جاء رجل آخر فكلمنا فغلبنا؟

قال: نتبعه!

فقال مالك رحمه الله: يا عبدالله! بعث الله عز وجل محمداً صلى الله عليه وسلم بدين واحد، وأراك تنتقل من دين إلى دين».

وقال عمر بن عبدالعزيز: «من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التنقل».

وجاء رجل إلى الحسن فقال: يا أباسعيد تعال حتى أخاصمك في الدين، فقال الحسن: أما أنا فقد أبصرت ديني، فإن كنت أضللت دينك فالتمسه [1]!

وإذا كان الجدل والمراء، والخصومة في الدين مذمومة على كل حال فإنها تتأكد في حق المقلدة والجهال.

ويتأكد ترك المراء والجدل في كل ما لاطائل من ورائه كملح العلوم والنوادر، وما لايثمر عملاً غير السفسطة والتلاسن.

- **تنبيه: هذا السبب من أعظم أسباب الاختلاف المذموم، بل لايكاد ينجم عنه اختلاف يحمد، ولعله عامل رئيس في إذكاء نار الفرقة والفتنة بين المسلمين، ولاسيما أن التنظير العلمي مستقر عند كثيرين**

(١) راجع في النقول الثلاثة السابقة الشريعة للآجري، ص٥٦-٥٧.

ولكن على الرغم من ذلك يقع الافتراق لوقوع الخلل في هذا الجانب، والله المستعان.

رابعاً: ومن عوامل الاختلاف والتفرق: التعصب.

سواءاً كان سياسياً أم مذهبياً أو حزبياً أو لأفراد ورموز، وسواءً كان لفرط حب أم فرط بغض.

إن التعصب ران يطغى على القلب والعقل فيحول بينهما وبين الحق، ومهما عرضت على المتعصب من الحجج والبراهين فلن يراها.

يقول الماوردي رحمه الله: «ولقد رأيت من هذه الطبقة رجلاً يناظر في مجلس حفل وقد استدل عليه الخصم بدلالة صحيحة فكان جوابه عنها أن قال: إن هذه دلالة فاسدة، وجه فسادها أن شيخي لم يذكرها، وما لم يذكره الشيخ لا خير فيه. فأمسك عنه المستدل تعجباً؛ ولأن شيخه كان محتشماً. وقد حضرت طائفة يرون فيه مثل ما رأى هذا الجاهل، ثم أقبل المستدل علي وقال لي: والله لقد أفحمني بجهله وصار سائر الناس المبرئين من هذه الجهالة ما بين مستهزئ ومتعجب، ومستعيذ بالله من جهل مغرب»[(١)].

وما أقبح هذا الجهل يوم يسري إلى طوائف تعدُّ نفسها في عداد العاملين للإسلام الذائدين عن حياضه، ويزداد هذا القبح يوم يزعم أصحابها أنهم أهل الفكر المستنير والعقول غير المنغلقة! ويتضاعف القبح يوم يتسبون إلى السلف أو السنة، والسلف والسنة من هذا التعصب المقيت براء.

يقول العلم الإمام ابن تيمية ممتدحاً الأئمة الأعلام: «ومن تعصب لواحد

---

(١) أدب الدنيا والدين، ص٧٠.

بعينه من الأئمة دون الباقين فهو بمنزلة من تعصب لواحد بعينه من الصحابة دون الباقين. كالرافضي الذي يتعصب لعلي دون الخلفاء الثلاثة وجمهور الصحابة. وكالخارجي الذي يقدح في عثمان وعلي رضي الله عنهما فهذه طرق أهل البدع والأهواء الذين ثبت بالكتاب والسنة والإجماع أنهم مذمومون، خارجون عن الشريعة والمنهاج الذي بعث الله به رسوله ﷺ. فمن تعصب لواحد من الأئمة بعينه ففيه شبه من هؤلاء، سواء تعصب لمالك أو الشافعي أو أبي حنيفة أو أحمد أو غيرهم. ثم غاية المتعصب لواحد منهم أن يكون جاهلاً بقدره في العلم والدين، وبقدر الآخرين، فيكون جاهلاً ظالماً، والله يأمر بالعلم والعدل، وينهى عن الجهل والظلم»[(١)].

وقال مشيراً لآفة التعصب للحزب أو الجماعة: «وأما رأس الحزب فإنه رأس الطائفة التي تتحزب أيْ تصير حزباً فإن كانوا مجتمعين على ما أمر الله به ورسوله من غير زيادة ولا نقصان فهم مؤمنون لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن كانوا قد زادوا في ذلك ونقصوا مثل التعصب لمن دخل في حزبهم بالحق والباطل والإعراض عمن لم يدخل في حزبهم سواء كان على الحق والباطل، فهذا من التفرق الذي ذمه الله تعالى ورسوله، فإن الله ورسوله أمرا بالجماعة والائتلاف، ونهيا عن التفرقة والاختلاف، وأمرا بالتعاون على البر والتقوى، ونهيا عن التعاون على الإثم والعدوان»[(٢)].

---

(١) الفتاوى: ٢٢/ ٥٢٥.

(٢) الفتاوى: ١١/ ٩٢، وينظر فقه الائتلاف للخزندار.

خامساً: عوامل خارجية قادت إلى تفاقم الاختلاف.

وتتلخص في الحضارات والديانات التي ناصبت الإسلام العداء في القديم أو الحديث، وحتى لا يتشعب الحديث أتناول بالبيان العامل النصراني كمثال فأقول:

لقد جاء الإسلام فألف بين أشتات العرب، بل ألف بين أهل الخير من العالمين، فبلال رضي الله عنه حبشي، وصهيب رومي، وسلمان فارسي، ومحمد بن إسماعيل شيخ المحدثين بخاري، وصلاح الدين الأيوبي بطل الحروب الصليبية كردي، ومحمد بن إسحاق أول من دون السيرة النبوية فارسي، والطبري شيخ المؤرخين والمفسرين تركي، وإذا نظرت في سير تراجم أعلام الإسلام ومبدعيه وجدتهم من أقطار الأرض وأطرافها.

ومع ائتلاف هذه الخبرات المتنوعة وانسجامها ازدهرت حضارة الإسلام وقويت شوكة أهله.

وكان لهذا الائتلاف أثر في صد الغزو الصليبي عن بلاد المسلمين على مر التاريخ، وباسترجاع سير أولئك الذين وقفوا في وجه المد الصليبي تتضح هذه الحقيقة بجلاء ولعل أشهر نموذج هو صلاح الدين الأيوبي عليه رحمة الله.

وقد أردك أعداء الإسلام من النصارى واليهود هذه الحقيقة، فكانت الخطوة الأولى التي قاموا بها من أجل السيطرة على بلاد الإسلام وجعلها تابعة ذليلة هي العمل على تفكيك وحدتهم عملاً بمشورة القساوسة ووصيتهم للساسة، ومن بعض أقوالهم في ذلك ما يلي[1]:

---

(١) مستقاة من كتاب: قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله.

١ - يقول القس سيمون:

إن الوحدة الإسلامية تجمع آمال الشعوب الإسلامية، وتساعد التملص من السيطرة الأوربية، والتبشير عامل مهم في كسر شوكة هذه الحركة، من أجل ذلك يجب أن نحوّل بالتبشير اتجاه المسلمين عن الوحدة الإسلامية.

٢- ويقول المبشر لورنس براون:

إذا اتحد المسلمون في إمبراطورية عربية، أمكن أن يصبحوا لعنةً على العالم وخطراً، أو أمكن أن يصبحوا أيضاً نعمة له، أما إذا بقوا متفرقين، فإنهم يظلون حينئذ بلا وزن ولا تأثير.

ويكمل حديثه:

يجب أن يبقى العرب والمسلمون متفرقين، ليبقوا بلا قوة ولا تأثير.

٣- ويقول أرنولد توينبى في كتابه الإسلام والغرب والمستقبل:

إن الوحدة الإسلامية نائمة، لكن يجب أن نضع في حسابنا أن النائم قد يستيقظ.

٤- وقد فرح غابرائيل هانوتو وزير خارجية فرنسا حينما انحل رباط تونس الشديد بالبلاد الإسلامية، وتفلتت روابطه مع مكة، ومع ماضيه الإسلامي، حين فرض عليه الفرنسيون فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية.

٥- من أخطر ما نذكره من أخبار حول هذه النقطة هو ما يلي:

في سنة ١٩٠٧ عقد مؤتمر أوربى كبير، ضمَّ أضخم نخبة من المفكرين والسياسيين الأوربيين برئاسة وزير خارجية بريطانيا الذي قال في خطاب الافتتاح:

إن الحضارة الأوروبية مهددة بالانحلال والفناء، والواجب يقضى علينا أن نبحث في هذا المؤتمر عن وسيلة فعالة تحول دون انهيار حضارتنا.

واستمر المؤتمر شهراً من الدراسة والنقاش.

واستعرض المؤتمرون الأخطار الخارجية التي يمكن أن تقضى على الحضارة الغربية الآفلة، فوجدوا أن المسلمين هم أعظم خطر يهدِّد أوربا.

فقرر المؤتمرون وضع خطة تقضي ببذل جهودهم كلها لمنع إيجاد أي اتحاد أو اتفاق بين دول الشرق الأوسط، لأن الشرق الأوسط المسلم المتحد يشكل الخطر الوحيد على مستقبل أوربا.

وأخيراً قرروا إنشاء قومية غربية معادية للعرب والمسلمين شرقي قناة السويس، ليبقى العرب متفرقين.

وبذا أرست بريطانيا أسس التعاون والتحالف مع الصهيونية العالمية التي كانت تدعو إلى إنشاء دولة يهودية في فلسطين».

وقد ترجم المنصرون وأتباعهم تلك التصورات إلى حركات ونعرات عنصرية أو قومية نجحت في التأليب على دولة الخلافة الإسلامية، وفي تفكيك عرى الأخوة بين المؤمنين عرباً وتركاً.

وإذا تأملت رواد حركة القومية العربية وجدت الكثرة الغالبة من الرعيل الأول في هذه الحركة وفي هذا البعث من نصارى لبنان، مثل البستاني واليازجي والشدياق وأديب إسحاق ونقاش وشمّيل وتقلا ومشاقة وزيدان ونمر وصروف. وأغلبهم ممن اتصلوا بالإرساليات الإنجيلية الأمريكية التي بدأت تتوارد على بيروت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لنشر مذهبهم البروتستانتي. وأكثرهم في الوقت نفسه قد رموا بالماسونية، فإبراهيم اليازجي (١٨٤٧ – ١٩٠٦م) وأبوه ناصيف اليازجي (١٨٠٠ – ١٨٧١م) كانا على صلة حسنة بالإرساليات الأمريكية الإنجيلية، وكانا يترددان على مطبعتهم في بيروت التي كان يشرف عليها وقتذاك الدكتور فانديك. وقد علّم اليازجي الكبير في مدارسهم، وأعان ابنه في ترجمتهم التوراة إلى العربية، ثم قَدِم بعد ذلك إلى مصر ومات بها، واحتفلت المحافل الماسونية في القاهرة والإسكندرية بتأبينه، وهو صاحب قصيدتين مشهورتين في استنهاض همم العرب ودعوتهم إلى إحياء أمجاد آبائهم، ورفض التجبر والاستبداد، وفيهما دعا قومه من العرب إلى الثورة على الأتراك، وختم قصيدته مهدداً الترك بقوله:

صبراً هيا أمة الترك التي ظلمت ... دهراً فعما قليل تُرفع الحجبُ
لنطلبنَّ بحد السيف مأربنا ... فلن يخيب لنا في جنبه أَرَبُ
ونتركنَّ علوج الترك تندب ما ... قد قدمته أياديها فتنتحبُ
ومن يعش يرَ والأيام مقبلة ... يلوح للمرء في أحداثها العجبُ

ومن مؤسسي هذه الدعوة أيضاً بطرس البستاني (١٨١٩ – ١٨٨٣م)،

وقد كان أيضاً على صلة بدعاة المذهب الإنجيلي والبروتستانت من الأمريكان، وتولى منصب الترجمة في قنصلية أمريكا ببيروت. وأعان الدكتور سمث المبشر الأمريكي ثم الدكتور فانديك من بعده في الترجمة البروتستانتية للتوراة التي تمت في سنة ١٨٦٤م، ثم طبعت في أمريكا سنة ١٨٦٦. وأعان الدكتور فانديك أيضاً في إنشاء مدرسة عبية الأمريكية، وهي مدرسة عليا ترجع أهميتها إلى أنها كانت تقوم بتدريس العلوم الحديثة من جغرافيا وطبيعة وكيمياء ورياضة باللغة العربية. وقد وضعت لذلك كتباً خاصة قامت بطبعها، فشاركت بذلك في حركة الإحياء العربية ... ومن الذين شاركوا في هذه الدعوة أيضاً من نصارى لبنان فارس الشدياق (١٨٠١ – ١٨٨٧)، الذي تسمّى بعد إسلامه... بأحمد، واتبع المذهب الإنجيلي على يد المرسلين الأمريكان، فتولوا حمايته من بطش رجال الإكليروس الذين حبسوا أخاه، وعذبوه حتى مات في سجنهم بسبب تغييره مذهبه. حضر على نفقتهم إلى مصر في أيام محمد علي، ثم طوّف كثيراً بين دول أوروبا والأستانة وتونس ومصر. ووصف كثيراً من هذه الأسفار في صحيفته (الجوائب) التي أصدرها سنة ١٢٧٧هـ. وقد استدعته جمعية ترجمة التوراة البروتستانتية في لندن سنة ١٨٤٨م فأعان في ترجمتها إلى العربية. وله كتب كثيرة تغلب عليها النزعة اللغوية.. ومن دعائم هذه الدعوة أيضاً سليم تقلا مؤسس صحيفة (الأهرام) المصرية (١٨٤٩ – ١٨٩٢م). تلقى علومه في مدرسة عبية التي أنشأها المبشر الأمريكي الدكتور فانديك أحد مؤسسي الجامعة الأمريكية، التي بدأت سنة ١٨٦٦م باسم (الكلية السورية الإنجيلية).

ومنهم جرجي زيدان (١٨٦١ - ١٩١٤م) الذي كان على صلة بالمبعوثين الأمريكان. وكان يُدعى إلى احتفالات الخريجين بكليتهم، ثم التحق بالجامعة الأمريكية سنة ١٨٨١ لدراسة الطب، وغادرها دون أن يتم دراسته في العام التالي. وهو صاحب المباحث المعروفة في اللغة العربية وآدابها. ومؤلف سلسلة من القصص التاريخية العربية، وقد كان أحد مؤسسي دار الهلال، والآخر هو أخوه (إميل زيدن) ومن نافلة القول أن يقال: وهذا ماروني مثله. إلا ابن جورجي إضافة إلى كونه صحفياً فقد توجه إلى كتابة القصص والروايات الإسلامية كما يقال ويقصدون بها التي تتناول أحداث التاريخ الإسلامي في ثوب فني، وعلى الرغم من القدر الذي كان يمتلكه الرجل من البراعة الفنية إلا أنه ما نسي يوماً فصوّر المسلمين في موقف يبعث على الإعجاب بهم أو تقديرهم أو احترامهم فضلاً عن أن يبعث في المسلم الاعتزاز بالأمجاد الإسلامية.

فالمسلمون في رواياته دولةً وشعباً إما غارقون في الطرب واللهو، أو لاهثون وراء شهوات الدنيا جنساً ومالاً وملكاً.

وعندما يقفون مواقف جادة تثير الإعجاب فلأنَّ واحداً من أهل الكتاب كان مستشاراً لهم مخططاً لأجلهم وهذا متى؟ في أشد الأوقات التي كان المسلمون فيها ممكنين في الأرض تُدين لهم الدنيا بالطاعة والاذعان [1] والشاهد من هذا منذ أن الصبح دعاة القومية هم أولئك، ومنذ ذلك الوقت نشأت

---

(١) ينظر هذا المعنى في قضية تحرير المرأة لمحمد قطب، ص٧٢ - ٧٣.

التفرقة بين العروبة والإسلام على يد هذه الطائفة من مفكري وكتاب نصارى الشام كما يقول الأستاذ محمد حسين... ومنذ ذلك الوقت نشأت التفرقة بين العروبة والإسلام على يد هذه الطائفة من المفكرين والكتاب من نصارى الشام[1].

ولهذا لم يكن مستغرباً أن ينقلب الشاعر العراقي معروف الرصافي على دعاة الجامعة العربية حين عقدوا مؤتمرهم في باريس سنة ١٩١٣ بعد أن كان مؤيداً لهم بشد أزر دعوتهم بشعره، وذلك في قصيدته (ما هكذا) التي بدأها بقوله:

أصبحت أوسعهم لوماً وتثريباً ... لما امتطوا غارب الإفراط مركوباً

وفيها يقول:

إني لأبصر في (بيروت) قَائبةً ... للشَّر موشِكةً أن تُخرج القُوبا[2]

لو كان في غير (باريز) تألبهم ... ما كنت أحسبهم قوماً مناكيبا

لكن (باريزَ) ما زالت مطامِعُها ... ترنو إلى الشام تصعيداً وتصويبا

ولم تزل كلَّ يوم في سياستها ... تلقي العراقيلَ فيها والعراقيبا

هل يأمن القوم أن يحتل ساحتهم ... جيش يَدكُّ من الشام الأهاضيبا

وما قاله تحقق، فما انتهت الحرب العالمية الأولى إلاّ والشام وغيرها من

(١) الإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين، ص٢٢٥، باختصار وتصرف.

(٢) لعله أراد بالقائبة التي تقوب والتقويب فلق الطير بيضه، فشبه الشر بتلك الحال للطائر، والقوبا: الفراخ وأراد به طير الشر. والعرب، تقول: تخلَّصت قائبة من قوب: أي بيضة من فرخ.

بلاد الإسلام موزعة بحسب القسمة التي تنبأ بها شكيب أرسلان في خطابه الموجه إلى الشريف حسين حين بلغه عزمه على غزو سوريا مع جيوش الحلفاء في الحرب العالمية الأولى. فأرسل ينهاه عن المضي فيما هو فيه من دعوة زعماء السوريين للخروج على الدولة العثمانية، والالتحاق بالجيش الحسيني العربي، ويحذره عاقبة هذه الغارات التي يضرب فيها العرب بالعرب، فيقول له فيما يقول: «أتقاتل العرب بالعرب أيها الأمير، حتى تكون ثمرة دماء قاتلهم ومقتولهم استيلاء إنجلترا على جزيرة العرب، وفرنسا على سورية، واليهود على فلسطين»؟ثم يخاطب القائمين بالدعوة قائلاً: «قل لهؤلاء القائمين بالدعوة العربية، الناهضين لحفظ حقوقها وأخذا تاراتها: ماذا إلى اليوم أمنوا من حقوق العرب بقيامهم؟

يقولوا لنا: ماذا أقاموا للعرب من الملك حتى نشكرهم، ونقر بفضلهم، لأننا عرب نحب كل من أحب العرب، ونبغض كل من أبغض العرب، ولا نبالي بالقيل والقال أمام الحقائق» (١).

وحتى لا نستغرق في الاستطراد نرجع فنؤكد على التأثير النصراني في تفرقة المسلمين، وننبه إلى أنه لم يكن وليد العصر الحديث، ولكنه اشتد ونجح في القرون الأخيرة فآتي أُكُلَه وثماره المريرة، ولايعني ذلك بحال عدم وجود محاولات قديمة من النصارى لتفريق صف المسلمين بل كانت لهم صولات وجولات كان لها أثرها الفعال في شق صف أمة الإسلام.

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية للدكتور محمد محمد حسين، ص٢٢٥، بتصرف، دار الرسالة، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ.

فـ«المراجع القديمة تثبت لنا أن القدرية أخذوا أقوالهم في القدر عن النصرانية، وتذكر لنا اسمين ارتبط بهما شيوع ذلك الاتجاه ونقله إلى المسلمين، وهما معبد الجهني وغيلان الدمشقي، قال ابن قتيبة – رحمه الله – عن غيلان: كان قبطياً قدرياً، لم يتكلم أحد في القدر قبله، ودعا إليه معبد الجهني.. ونحواً مما ذكره ابن قتيبة نُقل عن الأوزاعي وابن نباتة والمقريزي وغيرهم»(١).

فأثر النصارى في اختلاف المسلمين قديم، وأما أثر اليهود فهو أظهر وأخطر في القديم والحديث، ولعله لايتسع المقام لبسطه، وقد ركَّزتُ على الأثر النصراني لخفائه عن البعض.

***

---

(١) الماتوريدية للدكتور أحمد الحربي، ص٤١-٤٢، باختصار.

ثالثاً: آثار الافتراق المذموم

لن يتناول الحديث آثار الافتراق المحمود والذي مضت الإشارة إليه، فالغالب أن آثاره حميدة، ومنها التنوع في أساليب عرض الخير، وتعدد التخصصات الدعوية والإسلامية، وغير ذلك.

ولكني سأتناول الآثار السلبية للافتراق المذموم، ولن أطيل في تفصيلها خاصة وأن الواقع يحكيها، ويلقي دروساً مفصلة فيها، ويشرحها شرحاً مسهباً، ولعل من أهمها ما يلي:

أولاً: الضعف والعجز:

والنتيجة الطبيعية لذلك تخلف النصر وفشل الأمة وعجزها، قال الله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾[1].

قال ابن سعدي: ﴿ وَلَا تَنَٰزَعُواْ ﴾ تنازعا يوجب تشتت القلوب وتفرقها، ﴿ فَتَفْشَلُواْ ﴾ أي: تجبنوا ﴿ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾ أي: تنحلُّ عزائمكم، وتفرق قوتكم، ويرفع ما وعدتم به من النصر على طاعة اللّه ورسوله»[2].

وفي الآية السابقة «عوامل النصر الحقيقية: الثبات عند لقاء العدو.

---

(١) سورة الأنفار، الآية: ٤٦.

(٢) تيسير الكريم المنان، في تفسير كلام الرحمن، سورة الأنفال: ٤٦.

والاتصال بالله بالذكر. والطاعة لله والرسول. وتجنب النزاع والشقاق. والصبر على تكاليف المعركة. والحذر من البطر والرئاء والبغي..»[(١)].

وقد علم العقلاء بأن الاجتماع سبب قوة ومنعة..

كونوا جميعاً يا بَني إذا اعترى خطب ولا تتفرقوا أفرادا

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسراً وإذا افترقن تكسرت آحادا

ثانياً: هلاك الأمة

صحَّ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن ﷺ قال: «**ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**»[(٢)].

قال في تحفة الأحوذي: «واختلافهم عطف على الكثرة لا على السؤال لأن نفس الاختلاف موجب للهلاك بغير الكثرة»[(٣)].

قال ابن القيم رحمه الله: «وقد أخبر النبي ﷺ أن هلاك الأمم من قبلنا إنما كان باختلافهم على أنبيائهم وقال أبو الدرداء وأنس وواثلة بن الأسقع خرج علينا ﷺ ونحن نتنازع في شيء من الدين، فغضب غضباً شديداً لم يغضب مثله، قال ثم انتهرنا، قال: يا أمة محمد! لا تهيجوا على أنفسكم وهج النار، ثم

---

(١) الظلال، سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٢) البخاري: ٦/ ٢٦٥٨، ومسلم، ٢/ ٩٧٥، وغيرهما.

(٣) تحفة الأحوذي، ٧/ ٣٧٢.

قال أبهذا أمرتم؟ أو ليس عن هذا نُهيتم؟ إنما هلك من كان قبلكم بهذا، وقال عمرو بن شعيب عن أبيه عن ابني العاص أنهما قالا جلسنا مجلساً في عهد ﷺ كأنه أشد اغتباطاً فإذا رجال عند حجرة عائشة يتراجعون في القدر فلما رأيناهم اعتزلناهم ورسول الله ﷺ خلف الحجرة يسمع كلامهم، فخرج علينا رسول الله ﷺ مغضباً يعرف في وجهه الغضب حتى وقف عليهم وقال: يا قوم! بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض، ولكن نزل القرآن يصدق بعضه بعضاً ما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به ثم التفت فرآني أنا وأخي جالسين فغبطنا أنفسنا أن لا يكون رآنا معهم قال البخاري رأيت أحمد بن حنبل وعلي ابن عبد الله والحميدي وإسحاق بن إبراهيم يحتجون بحديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده وقال أحمد بن صالح أجمع آل عبد الله على أنها صحيفة عبد الله» (١).

ثالثاً: العقوبات المعنوية.

روى البخاري وغيره عن عبادة بن الصامت: «أن رسول الله ﷺ خرج يخبر بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال إني خرجت لأخبركم بليلة القدر وإنه تلاحى فلان وفلان فرفعت» (٢) الحديث.

---

(١) أعلام الموقعين: ١/ ٢٦٠.

(٢) صحيح البخاري: ١/ ٢٧.

قال النووي: «وفيه أن المخاصمة والمنازعة مذمومة وأنها سبب للعقوبة المعنوية»[١]، وقال ابن حجر: قوله (فتلاحى) بفتح الحاء المهملة مشتق من التلاحي بكسرها وهو التنازع والمخاصمة... قال القاضي عياض: فيه دليل على أن المخاصمة مذمومة، وأنها سبب في العقوبة المعنوية أي الحرمان[٢].

رابعاً: الجهل بالحق والبعد عنه.

ونتيجة هذا أن يعيش أهل الحق غربة بين الناس:

وأي اغتراب فوق غربتنا التي لها أضحت الأعداء فينا تَحكَّمُ

خامساً: براءة الرسول ﷺ من المفترقين:

قال الله عزوجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[٣]، يقول القرطبي رحمه الله: «﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ﴾ هم أهل البدع والشبهات، وأهل الضلالة من هذه الأمة،(شيعاً) فرقاً وأحزاباً، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأي بعض؛ فهم شيع، ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ فأوجب براءته منهم»[٤].

سادساً: اسوداد وجوه طوائف من المفترقين يوم القيامة:

كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ

---

(١) شرح النووي، على مسلم: ٨/ ٦٣.

(٢) الفتح: ١/ ١١٣، باختصار، ومثلهما قال الشوكاني في النيل: ٤/ ٣٧٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥٩.

(٤) تفسير القرطبي: ٧/ ١٥٠.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾[1].

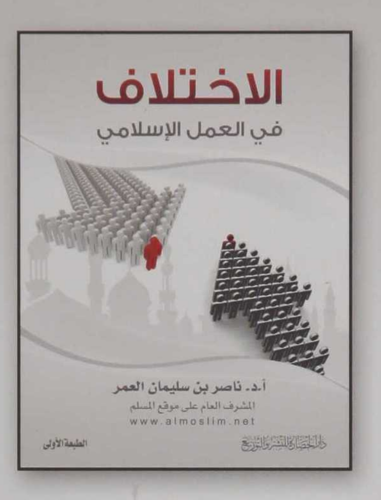
هـذا مـا تيسـر جمعـه في عجالـة، أسـأل الله أن ينفع به وأن يرزقنا وإياكم العلـم والعمـل، كما أسأله سبحانه أن يلمَّ شعث الأمة، وأن يوحِّد صفها، وأن يجعـل الدائـرة لها، إنه على ذلك قدير وبالإجابة جدير، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

***

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٠٥-١٠٧.

الفهرس

***





ص . ب: ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥ - الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨
جوال: ٠٥٠٧٤١٦٥٩١ - فاكس: ٢٤٨٣٠٠٤ - المبيعات والتوزيع: ٢٤١٦١٣٩-٢٤١٦١٣٩-فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨
المنطقة الغربية: تليفون ٠٢/٦١٤٣٩٢٠ - فاكس: ٠٢/٦١٤٣٩٦٠ - جوال: ٠٥٠٧٧٧٠٤٢١
بريد إلكتروني daralhadarah@hotmail.com
موقعنا الإلكتروني www.daralhadarah.com

ردمك: ١-٤٧٤-٥١-٩٩٦٠-٩٧٨

